يقتلها الظمأ وهي تحمل الماء على ظهورها في القرب ؟ أو كالحمار الذي يحمل أسفاراً ؟ ؟ . »

ومددت يدي إلى الكيس وأنا يقظان كنائم ، وتناولت منه من غير أن أنظر إليه : وطابت الجوافة في فمي ، فأقبلت عليها آكل وآكل — ولكن بغير احتفال والله — وإذا بصاحبتنا تدخل مؤهلة مرحبة باسطة يديها للسلام ، ثم إذا بها تقف في وسط الغرفة الفسيحة وعينها مفتوحة جداً عليّ ، فلم أستغرب ، فقد كان فمي محشوا وأسناني تعمل دائبة كالليل والنهار . وتنبهت إلى واجبي حين رأيتها تحملق على هذا النحو ، فبادرت ما بقي في فمي بسرعة ، ومططت عنقي ليسهل الانزلاق — أعني البلع — وانحنيت على الكيس لأتناوله وأقدمه إليها وأسرها به — أعني بالجوافة التي فيه — وإذا به ينطبق بين يدي لأنه فارغ ! !

الحق أقول إني بهتّ ، فما كان يخطر لي في بال أن آكل كل هذه الجوافة . ولو أن إنساناً راهنني أن أفعل لفزعت وأشفقت على نفسي ، ولكن هذا الذي لم أكن أحسب أن لي قدرة عليه وقع اتفاقاً . . وقد سرني هذا في الحقيقة لأنه كان من بواعث الاطمئنان لي على صحتي ، وكان جديراً بها أن تهنئني وتفرح لي ، فان الجوافة كثيرة وهي في السوق أكوام عظيمة ، والجيد الطيب ليس بالقليل ، وثمنه شيء تافه لا يستحق الذكر ... ولكنها وجمت يا أخي لا أدري لماذا ؟ ووقفت جامدة لا تتحرك كأنما سمرت إلى الأرض ، فأزعجني ذلك وخفت أن يكون قد أصابها شيء لا قدر الله ، وأقبلت عليها أسألها عما جرى لها ؛ فلما أفاقت أشارت بيدها — دون أن تتكلم — أن اذهب . . اذهب ولا أرني وجهك ! فاستغربت أن تلقاني بهذه الجفوة بعد ذاك الترحيب والتأهيل والبشر الذي كان يفيض به وجهها وهي مطلة به من بين مصراعي الباب ، وتمنيت لو أنها تبقى أبداً ووجهها بين المصراعين ليبقى لي بشرها وحلاوة ابتسامها ! !

الحق أني لا أفهم النساء .... وهل تستطيع أنت أن تفهم كيف يفسد الحال وتقع النبوة بين رجل وامرأة من أجل أقة من الجوافة ثمنها قرش ونصف قرش ؟ إن كنت تفهم هذا فاني أحسدك وأدعو لك بالتوفيق إن شاء الله

ابراهيم عبد القادر المازني

صور سياحية

١ — فرنسا وباريس

بقلم سائح متجول

تأثرت مصر بالثقافة الفرنسية طوال القرن الماضي ؛ ولم يكن ذلك لأن مصر أمة من أمم البحر الأبيض تميل بخواصها وموقعها إلى الأخذ بالثقافة اللاتينية ، ولكن لأن ظروفا خاصة اجتمعت منذ الغزوة البونابارتية لتحمل مصر فيما بعد على الاستعانة بالفرنسيين في مشروعات الاصلاح والتجديد وإرسال بعوثها العلمية الأولى إلى فرنسا . هذا هو الأصل في تأثر مصر بالثقافة الفرنسية ، وهو عارض تاريخي محض ، لا دخل فيه للعوامل الجغرافية أو الميول والخواص الجنسية ؛ ومن ثم فاننا نرى أثر الثقافة الفرنسية في مصر يضمحل اليوم ، لأن مصر تختار اليوم لنفسها من مختلف الثقافات ، لتبني ثقافتها القومية ، ولا تقف عند ثقافة دون أخرى

ومع ذلك فما تزال الثقافة والآداب الفرنسية تحظى منا بأكبر عناية ؛ وما تزال فرنسا تجذب منا أكبر عدد من الزائرين ؛ وما يزال اسم باريس يثير في نفوسنا سحرا لا يقاوم ؛ بل إن كثيراً من أولئك الذين لم يروا باريس يعرفونها معرفة عقلية وروحية شاملة : يعرفونها من الكتب والصحف والسينما ، وتربطهم بها روابط فكرية قوية ؛ وما تزال أول أمنية للسائح المبتدئ أن يرى باريس

وقد حظيت باريس من العربية بكتب ورسائل عديدة ، وحظيت في العهد الأخير بكتابين لاثنين من كتابنا المعروفين ، وصفت فيهما معاهدها ومغانيها وجوانب كثيرة من حياتها الاجتماعية ، وانك لتقرأ في الكتابين فصولاً وشذوراً تفيض اعجاباً بفرنسا وباريس وكل ما هو فرنسي ، بل إنك لتشعر من خلال تلك الفصول الحارة المتدفقة أن فرنسا هي أمة الأمم ، وأن باريس هي مدينة المدن وإلهة الجمال والعلوم والفنون ؛ وما زالت هذه الألوان الوردية المغرقة تطبع كل ما نكتب عن فرنسا وباريس

على أنه يلوح لنا أن هذه الفتنة التي قد تجد مبرراتها في بعض المؤثرات والظروف الخاصة ، والتي تثيرها في معظم الأحيان

أهواء وميول خاصة ، ويذكيها الجهل بأحوال الأمم والعواصم الأخرى ، وانعدام روح المقارنة الذى تتضاءل أمامه الصور والألوان الخلابة ؛ يلوح لنا أنها فتنة مبالغ فيها ، وأن شيئاً من الملاحظة البريئة ، وقليلاً من الاتزان فى الوصف والرواية ، وطرح المؤثرات والاعتبارات الخاصة مما يعاون على عرض صور أصدق وأدق من تلك الصور الوردية التى عرفناها وألفناها

ومهما يكن فى هذه الصور القديمة من صدق ؛ ومهما يكن لهذه الفتنة القديمة من مبررات ، فأنا نقول لأولئك الذين يرون العالم كله فى فرنسا وفى باريس : إن الأمور قد تغيرت أعظم تغير فى فرنسا وفى باريس

وكاتب هذه السطور سائح متجول يرى ويلاحظ ، ولكنه لا يدعى الوصول إلى المجهول والخارق ، وإنما يلاحظ ويقدر ما تهدى إليه المشاهدة والتجارب بعيداً عن كل اعتبار وهوى

* * *

لم تقدم فرنسا أية تسهيلات للسياحة سواء فى مسألة النقد أو السكك الحديدية أو الفنادق أو غيرها كما فعلت ألمانيا وإيطاليا ، وما زالت تعتمد على جاذبيتها القديمة ؛ غير أن فرنسا تخدع اليوم فى قيمة هذه الجاذبية ؛ وقد انحط موسم السياحة فى فرنسا انحطاطاً عظيما ، ولم تعد باريس كما كانت فى الماضى تعج بعشرات الألوف من الأجانب ولا سيما الأمريكيين والانكليز ؛ وأهم عامل فى هذا التحول هو ارتفاع قيمة الفرنك الفرنسى بالنسبة لنقد البلاد التى خرجت عن معيار الذهب . فالأمريكى أو الانكليزى أو المصرى الذى يزور فرنسا يفقد نحو أربعين فى المائة من قيمة نقده ؛ أضف إلى ذلك الغلاء الفاحش الذى يغمر كل شىء فى فرنسا ؛ ففى الفندق والمطعم والمقهى ، وفى الملاهى والتنقل وكل ما يتصل بالحياة اليومية ، تشعر بوطأة هذا الغلاء المرهق ، وتشعر كأن النقد يذوب بين يديك سراعاً

ولنضرب أمثلة مادية ؛ فالغرفة البسيطة فى فندق متوسط تكلف فى اليوم من ٢٥ إلى ٤٠ فرنكا [1] (من ٣٣ إلى ٥٢ قرشاً) ووجبة الطعام فى مطعم متوسط تكلف من ١٥ — ٢٥ فرنكا (٢٠ — ٣٣ قرشاً) هذا عدا الخدمة وهى من ١٠ إلى ١٥ فى المائة ؛ وثمن البيضة الواحدة فى المقهى أو حيث تتناول إفطارك فرنكان ونصف (٣٫٥ قروش) وثمن الواحدة من الموز أو التفاح أو الخوخ شراء يتراوح بين فرنك ونصف وثلاثة حسب النوع والحجم ؛ وأما فى المقهى فما خلا القهوة والنبيذ والكونياك والبيرة ، فان أثمان المشروبات الأجنبية تبلغ حدوداً تزهدك دائماً فى طلبها ؛ والسجائر الفرنسية رخيصة ولكنها سخيفة لا يقبلها الذوق ، والسجائر الأجنبية تكلف ضعف ثمنها وأحياناً ثلاثة أمثال ؛ وأما التنقل فى مدينة عظيمة كباريس فلست أحدثك عن « التاكسى » لأنه ترف لا يطيقه سوى الأغنياء ، ولكنى أقول إن أجور الأمنيبوس والترام الذى بقيت منه خطوط قليلة هى الضعف وأحياناً ثلاثة أمثال أجورها التى نعرفها هنا ؛ ولولا شبكة الترام الأرضى (المترو بولتان) التى تربط أحياء باريس وأطرافها ربطاً عجيباً بأجر زهيد (سبعين سنتيما أو نحو قرش صاغ) لكانت باريس أتعس العواصم من حيث المواصلات

هذه أمثلة وملاحظات نعنى بها السائح المتوسط ولا نعنى بها طبقة الطلبة أو أولئك الذين يلجأون إلى بعض الفنادق الشعبية الرخيصة حول الحى الجامعى فى سان ميشيل وفوجيرار ، ويتناولون طعامهم فى مطاعم العمال ، فهؤلاء حقاً يستطيعون أن يستمرئوا نوعا من العيش الرخيص لا يستسيغه السائح المتجول مهما كان من تواضعه وقناعته

ولا تنس إلى جانب ذلك الغلاء المرهق تلك الضريبة التعسفية التى أصبحت رذيلة اجتماعية شنيعة فى فرنسا (وفى غيرها أيضاً) ونعنى «البقشيش» ، ففى كل مكان وفى كل مناسبة ، فى التاكسى وفى المطعم والمقهى والمسرح وأينما حللت ، يمثل شبح البقشيش ، ويطلب بالحاح خشن ؛ وكل شىء يتطلب عطية حتى ولو لم تقدم أية خدمة ؛ والشره خلة بارزة لتلك الطبقة التى تحتك بها فى كل لحظة ونعنى طبقة الخدم والسقاة ؛ وروح الجشع تبدو فى كل مكان ؛ وقد تدخل المسرح أو الملهى الواحد فيطلب اليك البقشيش أربعة أو خمسة متعاقبون من الخدم قبل أن تجلس فى موضعك ، وإذا ترددت قيل لك إنا هنا لا نتناول أجراً ونعتمد على البقشيش ، وإذا لم تتذرع بشىء من الحزم والبرود كانت الخسارة فادحة ؛ هذا إلى المفاجآت السيئة فى الحساب ؛ ففى معظم الأحيان تدفع أكثر مما تتوقع لأسباب وأبواب غير معقولة ولكن لا مفر من إجابتها

ولقد قيل فى يونيه الماضى إن البرلمان الفرنسى قد أقر قانونا بالغاء « البقشيش » ، وقد صدر القانون فعلاً ، ولكنا أسأنا فهمه وإدراك مقصده ، فلم يكن قصد الحكومة الاشتراكية أن تحرم

(١) الفرنك نحو ١٢ مليما

الخدمة ومن إليهم من نعم هذه الضريبة المرذولة ، بل كان قصدها أن تجعل « البقشيش » حقاً وضريبة مشروعة لا عطية فقط ، وأن تحفظ كرامة هذا الخادم أو العامل فلا ينتظر البقشيش كعطية أو نفحة وإنما يرى فيه حقاً مكتسباً ينظم دفعه حسب الظروف والأحوال ؛ ولهذا كان أول ما قرأنا في تعليمات الفندق في مرسيليا ما يأتي : « بما أن البقشيش قد ألغى ، فقد قررت إدارة الفندق أن تحتسب بدل خدمة قدره عشرة في المائة ! »

ومما يلاحظه السائح في فرنسا ، وفي باريس بنوع خاص ، أن الأمانة في المعاملات ليست متوفرة دائماً ؛ وربما كان أول وأشهر التجارب التي يلاقيها السائح في ذلك هي مسألة التاكسي ؛ فاذا لم تكن تعرف الطريق أو لك فكرة عنه فويل لك من السائق ؛ وقلما تجد سائقاً يقودك الى المكان المقصود مباشرة ، ولا بد أن يطوف بك حيناً قبل أن يقودك إليه ، وعبثاً تلاحظ أو تعترض ، وعند الحساب تضاف إلى الأجر ملحقات زائفة يؤيدها السائق بالصخب والوعيد ؛ والويل لك إذا ترددت في الدفع ؛ وهذه تجربة أعتقد أن كل سائح مستجد يلقاها في فرنسا ؛ وقد بلوتها غير مرة وسمعت في شأنها روايات مدهشة مضحكة معاً عن تفنن السائقين في ابتزاز الملحقات غير المشروعة . وإنك لتلقى مثل هذا الغش أحياناً في المطعم والمقهى إذا لم تحسن مراجعة الحساب ؛ ومن الحق أن نقول إنك تلقى مثل هذه التجارب في غير فرنسا ، وإنك تلقاها في إيطاليا وباقي أمم البحر الأبيض ، ولكن يندر أن تلقاها في أمة من الأمم الشمالية

وحب المال خلة مشهورة في فرنسا ، وهي تذهب الى حد الجشع المثير ، وإنك لتلمس هذا الشره في كل المعاملات ، وتشعر بأن روح المادة والاستغلال تطغى على كل شيء وكل اعتبار ، ومن ثم كان شغف الكسب بأي الوسائل ، وكان تجلى الأثرة وانعدام روح المعاونة والمروءة في معظم الطبقات التي تحتك بها . ومن النادر أن تجد في باريس من يتقدم لمعاونتك أو إرشادك لمعرفة مكان أو غيره بشيء من التطوع أو الرقة التي تأنسها في بلاد أوربية أخرى ؛ وإذا قدم إليك مثل هذا العون شعرت أنه مقرون بالسرعة والمن ، وأحياناً بالتكلف والجفاء ، كأن وقت الفرنسي كله وكلماته كلها من ذهب ؛ وكثيراً ما تجاب بهز الأكتاف و « ليس عندي وقت » وأمثالها

هذا وقد أفسدت الروح الاشتراكية أخلاق الطبقات الدنيا وآدابها ، فالعامل والصانع والبائع والخادم والموظف الصغير ، هؤلاء جميعاً يتصورون أنهم سادة الموقف في فرنسا ، وأن المستقبل لهم . وإنك لتلاحظ هذا الأثر السيء بنوع خاص في طبقة العمال والخدم ، فهم يؤدون أعمالهم بتكلف ولا يحفلون بشيء ؛ وهم يشعرونك دائماً عند الحديث أنهم سادة مثلك ، ولهم في ذلك إشارات وألفاظ وقحة . وقد كان لحوادث أسبانيا في هذه الطبقات أثر عميق ملموس ؛ وكم سمعنا في الفندق والمطعم وفي الشارع والمترو من بعض أفراد هذه الطبقات أن الحكومة الاشتراكية إذا لم تجب مطالب الطبقات العاملة ، وإذا لم تسع الى تحسين الأجور وتخفيض مستوى المعيشة ، فان ما وقع في أسبانيا سوف يقع قريباً في فرنسا

وقد عرفت فرنسا أنها بلد الجدل السياسي ؛ ولكن هذا الجدل يحتدم اليوم في فرنسا بشدة ظاهرة ويغمر كل الطبقات ؛ وقد تشهد هذا الجدل في الشارع وفي المقهى وفي الترام ، وتسمع أغرب الآراء وأشدها تطرفاً . وتلقى الصحف على اختلاف نزعاتها رواجاً عظيماً بين كل الطبقات . وتلقى الصحف والنشرات الاشتراكية رواجاً خاصاً بين الطبقات العاملة . وقد لفت نظري كتابان يعرضان للبيع بكثرة ويقبل الناس على شرائهما ، أولهما رسالة عن حياة مسيو « ليون بلوم » رئيس الوزارة الفرنسية الحاضرة ، والثاني كتاب عنوانه « دوريو رجل الغد » ، ودوريو هو النائب الشيوعي الذي خرج على الحزب الشيوعي وعلى أوامر موسكو وكون لنفسه شعبة خاصة تتقدم كل يوم في الاهمية والعدد ؛ ويرى كثيرون أن دوريو هذا سيكون من قادة الغد ، وأنه ربما اضطلع بدور عظيم في التطورات السياسية المقبلة

ومما يلفت النظر بنوع خاص حالة القلق السياسي التي تسود فرنسا اليوم ، وتبدو ظاهرة في كتابات الصحف وفي تعليقات الأفراد ، ويشمل هذا القلق الشؤون الداخلية والخارجية معاً ؛ ففي ميدان الشؤون الداخلية يشعر الكثيرون بأن فرنسا مقبلة على تطورات سياسة هامة ، وأنه ربما اقترنت هذه التطورات بشيء من العنف . وفي ميدان الشؤن الخارجية يرى الكثيرون أن احتمالات الحرب الأوربية تتقدم بسرعة ، وأن نشوبها ربما كان أقرب مما يتصور الناس ، وأن فرنسا ستدعى في القريب العاجل إلى خوضها ؟

(يتبع) (•••)